المقتطف

الجزء الثامن من السنة السادسة عشرة

١ مايو (ايار) سنة ١٨٩٢ الموافق ٤ شوال سنة ١٣٠٩

تاريخ التعليم

مهما اختلف الناس في مذاهبهم السياسيَّة وامانيهم الوطنيَّة فهم متفقون على انهُ لا فلاح ولا استقلال الاَّ بانتشار التعليم والتهذيب . وقد يظن العامة ان تعلُّم القراءة والكتابة ومبادىء اللغة والحساب وتلقي لغة اجنبيَّة والتمرُّن في صناعة الانشاء والالقاء تقوم بالغرض المطلوب وتؤهِّل ابناء العصر المقبل لمجاراة الاوربيين ومسابقتهم في ميدان الحضارة . ولكن الباحث في تاريخ التعليم الناظر في حقيقتهِ يرى انهُ قد صار الآن صناعة محكمة مبنيَّة على ادق المباحث العقليَّة والفسيولوجيَّة وانهُ لا يقتصر على ما تقدَّم بل يتناول تربية قوى النفس والعقل والبدن وتأهيلها لاعظم الاعمال واجلِّها وان نسبتهُ الى طرق التعليم القديمة او الى الطرق التي لم تزل متبعة في بلادنا نسبة صناعة الطب الحديثة المبنيَّة على المكتشفات العلميَّة الى الصناعة القديمة المبنيَّة على الحدس والتجارب الاتفاقيَّة وانهُ لاقوام للشعوب الشرقيَّة ما لم تجارِ الشعوب الغربيَّة في طرق التعليم والتثقيف . وقد جمعنا في هذه المقالة شذوراً من تاريخ التعليم بيَّنا منها تدرُّجهُ في الارتقاء الى ان بلغ عصرنا هذا ولم نتعرَّض لذكر تاريخهِ عند الهنود والصينيين وغيرهم من امم المشرق الاقصى لان طرقهُ عندهم عقيمة وقد كان من نتائجها وقوف تلك الامم على درجة واحدة من العمران منذ اكثر من الفي سنة الى الآن

واول من عني بامر التعليم من امم المغرب اليونانيون وقد قسموا العلم الى قسمين الموسيقي والرياضي اراد بهما كل ما يمرِّن قوى العقل والجسد فكان شبانهم يمرِّنون ابدانهم بالمحاضرة والمصارعة ويتذاكرون في خلال ذلك مع اساتذتهم في اسمى المواضيع الادبيَّة والفلسفيَّة كالصلاح والجمال والعدل . اما الرومانيون فاعتنوا بالخطابة من فنون العلم

واهملوا النفيّة لانهم عدوا اكتسابها سهلاً على كل احد حتّى قال شيشرون ان كل احد يستطيع ان يصير قاضياً في اسبوع من الزمان وقال غيرهُ ان كل احد مستعدٌ بالطبع ليكون قائداً وحاكماً . الاّ انهم وسّعوا نطاق الخطابة جدًّا حتّى اذا اعتبرنا الشرائط التي اشترطها كوِنتِليانوس احد مشاهير كتّابهم لصيرورة الانسان خطيباً وجدنا انهُ جمع فيها كل ما يؤهل الانسان للاعمال العموميّة والخصوصيّة في السلم والحرب وللقيام بها بالحكمة والصلاح

وخلاصة ما قرّرهُ فلاسفة اليونان والرومان كغاية التعليم الجلّى ان الانسان جميل بالطبع ذكي مجتهد شفوق ميّال الى الاستدلال والاستنتاج محب للذّات كارهٌ للاستعباد متطلّب كشف الاسرار متمسّك بحبال الرجاء طامع باسمى المطالب يعلم ان كل ما في الدنيا ظلٌّ زائل وان الحياة الاخرى هي الباقية وانهُ فصيح بالطبع حريص على ما ينفعهُ وان خير ما يفعلهُ حفظ استقلالهِ والمدافعة عن وطنهِ وقيادة الجيوش في القفار الشاسعة وانشاء الطرق والحصون والتغلّب على الاعداء واستقصال شأفتهم . وظاهر الامر ان طريقة التعليم التي اتبعوها بلّغتهم هذه المنى ولكننا لم نقابل رجالهم برجال غيرهم من الامم الاّ رجعنا مقتنعين ان طرق تعليمهم لم تبلغهم غاية شريفة يتعذّر البلوغ اليها بغيرها بل انها كانت كطرق الزراعة التي ليس لها اسس علميّة فان الارض الجيدة تنتج بها غلةً وافرة وغير الجيدة لا تصلح بها وقلما تنتج شيئاً او كاساليب الطب القديمة يشفى بها مَن كان يشفى بغيرها وقلما تزيل علّة او تخفّف المّا . ومع ذلك فان اساليب التعليم عند اليونان والرومان كانت ارقى ممّا صارت اليهِ في القرون الوسطى

ولما انتشرت الديانة المسيحية في المملكة الرومانية كان المسيحيون يتلقّون دروسهم في مدارس الوثنيين في اوربا واسيا وافريقية وبقيت هذه المدارس يانعة الى القرن الخامس ولكنّ المسيحيين غادروها لمّا عظم امرهم وانشأوا مدرسة في الاسكندريّة اشتهر منها اكليمندس الاسكندري واوريجنوس واقتدى بهم اهالي ايطاليا وحظروا على بنيهم تلقي العلوم في مدارس الوثنيين . وانقسمت مدارس المسيحيين الى قسمين كبيرين الواحد غرضهُ التعاليم الدينية وهي في الاديرة تحت سيطرة الرهبان والثاني غرضهُ تربية الفرسان واهل السيادة وكان في القصور ودور الامراء . اما المدارس الاولى فكانت تعلّم قواعد اللغة والمنطق والبيان والموسيقى والحساب والهندسة والفلك وهي العلوم السبعة التي كانوا يفاخرون بها ويحسبون التضلع منها منتهى العلم والحكمة . وكان الطلبة مطالَبين باطالة الصلوات والاقامة في الكنائس ساعات كثيرة ونسخ الكتب الدينية وترويجها وكان المدرّسون قساة صارمين يلبّأون الى السوط كلما رأوا من التلامذة عناداً او اهمالاً حتّى كان الطالب يعدُّ المدرّس خصمًا لهُ والدروس حملاً شاقًّا

لا راحة الاّ باطّراحه ولو دامت الحال على هذا المنوال لانطفأ نور المعارف ولم يبقَ لها عين ولا اثر

والمدارس الثانية وهي مدارس الامراء والفرسان واهل السيادة كانت تعلم الفراسة والسباحة والرماية والملاكمة والصيد ولعب الشطرنج ونظم الاشعار . ويظهر الفرق بين المدارس الاولى والثانية في نظر كلٍّ منها الى المرأة فان المدارس الاولى كانت تعلّم طلبتها ان المرأة اصل كل الشرور والبلايا ولا راحة ولا سعادة الاّ بالابتعاد عنها واختيار الرهبنة . والمدارس الثانية كانت تعلّم طلبتها ان نعيمهم في هذه الدنيا وخير جزاء ينالونهُ فيها ان يرضى النساء الشريفات عن اعمالهم ويقابلنها بالبشر والايناس وان المرأة الفاضلة مثال لما يكون عليهِ الابرار في الحياة الاخرى

وبينما كانت اوربا تخبط في ظلام الجهل الدامس كانت الممالك الشرقيّة قد خضعت لاقوام الحكمةُ ضالّتهم وجدوها في كتب اليونان فنقلوها الى لغتهم وعكف جمهور منهم ومن الفرس والسريان والروم الذين تدينوا بدينهم او لجأوا الى حماهم على شرحها ونشرها وأنشئت المدارس الكبيرة في دمشق وبغداد ومصر والاندلس ولكن طريقة التعليم لم ترتقِ في عهدهم بل لم تبلغ ما بلغتهُ عند اليونان لانهم اتّبعوا طريقة الاوربيين الشائعة لعهدهم فكانوا يدرسون الحساب والمنطق والهندسة والفلك والطبيعيات وزادوا عليها الجبر والمقابلة واصول الدين ولم يجعلوا التعليم علمًا ولا بحثوا في اساليبهِ . وجهد ما اشار بهِ بعضهم اساليب عمليّة مقتبسة من التجارب كطريقة ابن الاثير لاكتساب ملكة الانشاء وابن رشد لاكتساب ملكة اللغة اما طريقة ابن الاثير التي ذكرها في كتابهِ الوشي المرقوم فهي استظهار القرآن الكريم وما يقاربهُ حجمهُ من الاخبار النبويّة والاشعار الكثيرة بناءً على انهُ هو حفظ القرآن وكتاب الحماسة وديوان ابي تمام وديوان البحتري وديوان المتنبي وكان يكرّر عليها بالدرس مدة سنين حتّى تمكّن من صوغ المعاني . ولم يشر بحفظ الخطب والرسائل ونحوها من الكلام المنثور . واما طريقة ابن خلدون التي ذكرها في مقدمتهِ فهي أن على طالب ملكة اللسان المضري "ان يأخذ نفسهُ بحفظ كلامهم القديم الجاري على اساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في اجتماعهم واشعارهم وكلمات المولدين ايضًا في سائر فنونهم حتّى يتنزّل لكثرة حفظهِ لكلامهم المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرّف بعد ذلك في التعبير عمّا في ضميرهِ على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاهُ وحفظهُ من اساليبهم وترتيب الفاظهم فتحصل لهُ هذه الملكة بهذا

الحفظ والاستعمال و يزداد بكثرتها رسوخاً وقوّةً " الا ان ابن خلدون ذكر شرطاً آخر لبلوغ هذه الغاية وهو ان الطالب "يحتاج الى سلامة الطبع" اي يجب ان يكون مستعدًّا بالطبع للبراعة فيبرع في امتلاك ملكة اللسان

والاسلوبان اللذان ذكرهما هذان الفاضلان لا مريبة في صحتهما لانهما مقتبسان من التجربة والاختبار ولكنهما كحرث الارض الجيدة وعلاج المريض الذي قويت طبيعته على مرضه لا ينظر فيهما الى حقيقة فعل الحرث بالارض وتطبيقه على احوالها المختلفة ولا الى حقيقة فعل الدواء بالجسم ووجوب اختلافه باختلاف احوال المريض والمرض ولذلك فنجاحهما حاصل من سلامة الطبع وحسن الاستعداد الفطري

وقد مضى على المدارس الشرقيّة الف سنة فاكثر فكان من نتائجها ما نراهُ بعيوننا من الانحطاط المتزايد والتقهقر المتواصل علمًا وعملاً وصناعةً وزراعةً وسياسةً . ولا تحسبنّ ان ما حدث ناتج كلهُ عن الخلل السياسي الذي وقع في ممالك المشرق فان للعلم اليد الطولى في كل ارتقاء وللجهل اليد الطولى في كل انحطاط ولو كان التعليم عندنا بالغًا مبلغ التعليم في اوربا ما فاقتنا اوربا بعد ان كانت منحطّةً عنا ولا انحططنا عنها بعد ان كنّا فوقها فان الشرقي ليس دون الغربي في استعداده الفطري ودليلنا على ذلك مجاراتهُ للغربي الآن اذا تساوت وسائطها بل انهُ يفوق الغربي في غالب الاحيان وذلك دليل قاطع على ان وسائط التعليم والتهذيب التي اعتمدنا عليها الى الآن قاصرة عن ان تجعلنا نجاري امم اوربا

وفي القرن الثاني عشر للميلاد اقتدى الاوربيون بالعرب وانشأوا المدارس الكبيرة فانشئت مدرسة بولونا في ايطاليا و بلغ عدد تلامذتها في اواخر القرن الثاني عشر اثني عشر الفًا وكانت تعلم الفقه وانشئت مدرسة سالارنو لتعليم الطب ومدرسة باريس لتعليم اللاهوت والفلسفة . ولم يمضِ القرن الخامس عشر حتّى عمت المدارس الكبيرة ممالك اوربا وجعل علماؤها يهتمون باصلاح التعليم واقامته على اسس معقولة ومنهم اراسموس الذي نشأ في اواخر القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر ومن القواعد التي وضعها لذلك انهُ يجب على كل تلميذ ان يدرس اللغة اليونانيّة واللغة اللاتينيّة وان تكون طريقة التعليم ممّا يدعو الطالب الى الرغبة في العلم والتشوّق اليهِ ولا يكون فيها شيءٌ يدعوهُ الى الملل والسآمة ويجب ان يعلّم الطلبة صناعةً كالتصوير والنقش . وتعليم البنات ضروري مثل تعليم الصبيان ولتربية الولد في بيت ابيهِ التأثير الاقوى في نفسهِ . ويجب ان يُلتفت الى الميل الفطري ولا يجبر الاولاد على ما ينفرون منهُ بالفطرة فان مجاراة الفطرة ادعى الى النجاح من

معاكسها . وبقي التعليم الى ذلك العهد مختصًّا بالطبقة العليا والوسطى من الناس واما الفقراء فكانوا محرومين منهُ وأول مَن اشرك ابناء الفقراء فيهِ لوثيروس المصلح العظيم فكان ما فعلهُ اساسًا لما نراهُ الآن من عظمة جرمانيا وتقدم شعبها على كل شعوب اوربا في العلم والعرفان وساعدهُ في ذلك قرينهُ ملنكتون واصلح كتب التدريس والَّف كتبًا ابتدائيَّة في النحو والمنطق والبيان والطبيعيات . وتوالى المصلحون بعدهما وكلٌّ منهم يقتبس من اخباره اموراً كليَّة يجعلها قواعد للتعليم او ينظم كتب التعليم بموجبها . ومن اشهر هذه القواعد قواعد العالم رتكي الذي نشأ في اواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر ومنها ما يأتي

لا تعلِّم علمين في وقت واحد علَّم العلوم بلغة التلامذة لا بلغة اجنبيَّة لا تجبر التلامذة على التعلُّم ولا تستعمل العصا ولا تدعهم يستظهرون شيئًا واعطهم فرصةً كافية للراحة والرياضة ولا تعلِّمهم ساعتين متواليتين علمهم القضيَّة ثم برهانها ولا تعلمهم قاعدة قبلما تضرب لهم امثلةً عليها واعتمد في العلم على الاستقراء والامتحان . ولم يزل اكثر هذه القواعد معمولاً بهِ الى الآن . ومنها قواعد كومنيوس واشهرها وجوب تعليم الاشياء مع الاسماء وقد سهَّل بذلك تعليم اللغات الحديثة التي يضيع جانب كبير من الوقت في تعلُّمها

ولكن ما لبثت هذه القواعد حتَّى صارت احكامًا يتبعها المعلمون حرفيًّا غير ناظرين الى غايتها ولا مهتمين بتطبيقها على مقتضيات الحال . وقصروا اهتمامهم على تهذيب القوى العقليَّة غير ملتفتين الى القوى الادبية . وقد رأى بعضهم هذه العيوب ونددوا بها واشاروا بطرُق ملافاتها وكان السابقون منهم الى اصلاح التعليم من طائفة البرونستنط ففاقوا غيرهم في تعليم ابنائهم وارتقاء بلدانهم الآن الجزويت قاموا في اواخر القرن السادس عشر ووضعوا قواعد لاصلاح التعليم لم تزل مرعيَّة الى يومنا هذا مع ما دخلها من التغيير مراعاةً لاحوال الزمان وتقدم العمران وقد شهد لهم بالفضل في ذلك الفيلسوفان بآكون وديكارت ولا يليق بمنصف ان يخصهم حقهم فانهم اصلحوا التعليم في اوربا حينئذٍ ولاسيَّما في الممالك الكاثوليكيَّة لكن يُنتقد على اسلوبهم انهم صاروا يراقبون التلميذ مراقبة شديدة تجعلهُ عبدًا لهم ويستقصون قوى نفسهِ الى اعمق مخادعها لكي يبدلوها بقوًى اخرى تنوب مكانها . ويدربون كل عقل بحسب ميلهِ الفطري لكي يكون آلة في يدهم . ويهتمون بالحفلات المدرسيَّة وتوزيع الجوائز ونحو ذلك ممَّا يسرُّ الوالدين ولو لم يفد التلامذة فائدة كبيرة . ويعلِّمون العلوم المعروفة في عصرهم لكي لا يكونوا دون غيرهم ولكنهم لا يبذلون الجهد في توسيع نطاق العلم واكتشاف الحقائق العلميَّة والبحث عن النواميس الطبيعيَّة . والمرجَّح انهم سيعدلون عن هذه الخطَّة ويعودون الى الاهتمام

بامر التعليم حتّى يبتى لهم المقام الاوّل فيهِ

وسنة ١٧٩٢ نشر روسو كتابهُ في التعليم فكان لهُ اعظم وقع في النفوس لانهُ اشار باتّباع منهج الطبع في تربية الاطفال . واقبال الناس على هذا الكتاب مع ما فيهِ من المستهجنات دليل على ان التعليم كان في حالة الضعف الشديد فرحّب الناس بكل دواء لعلاجهِ ويقال ان النفوس كثرت وقامت قائمة الثورة الفرنسويّة من تأثيرهِ فيها

وفي تلك الاثناء نشأ بستالوزي الذي اصلح صناعة التعليم اكثر من كل من تقدّمهُ وكانت ولادتهُ في مدينة زورك بسويسرا سنة ١٧٤٦ واشتهر بحبهِ لتلامذتهِ وايثارهم على نفسهِ وبالاسلوب البسيط الذي جرى عليهِ في تعليمهم . وارتقت صناعة التعليم رويدًا رويدًا في اوربا واميركا الى ان قام هربرت سبنسر واسكندر باين الفيلسوفان الانكليزيان ووضعاها على اسس علميّة فسيولوجيّة وعقليّة . وسنأتي على بسط اساليبهما في بعض الاجزاء التالية . هذا من جهة صناعة التعليم اما علم التعليم لم يتقدّم كما تقدّمت صناعتهُ لكثرة ما فيهِ من الشعاب والغوامض ولانهُ مبنيٌّ على العلم بقوى النفس وكيفيّة نموها وارتقائها وهذا العلم لم يزل في نشأتهِ ولم يكشف الاّ النزر من حقائقهِ

نودان السفن

اقبل الصيف بحرهِ وعشيرهِ وهمّ كثيرون من نزلاء الديار المصريّة على مغادرتها الى الديار الشاميّة او الاوربيّة حتّى اذا بلغوا ميناء الاسكندريّة ورأوا السفن الراسية فيهِ قابلها بعضهم بوجه باسم وبعضهم بوجه عبوس فان ركوب البحار فكاهة عند مَن لا يصيبهُ الدوار ولا يعبأ بحركات السفينة وسكناتها واضطراب البحر وهبوطهِ فيأكل اضعاف ما يأكل على البر ويسرّ ويطرب ويعدُّ السفر فرصة من فرص الزمان تغتدى بكل مرتخص وغالٍ . وهو بليّة على مَن يترصدهُ الدوار على شطوط البحار فلا تزدرِ بهِ السفينة حتّى تنود امعاؤهُ في بطنهِ وتذيقهُ الامرّين فيستعيض عن لذة السفر ومسامرة الخلاّن بمرارة الصفراء وغطيط القيء والجشاء ولا يطيب لهُ طعام ولا شراب ولا حديث ولا منام هذا اذا استطاع ان يأكل او يشرب او يتكلّم او ينام والاّ فينوسد سريرهُ او يتمرّغ في قيئهِ الى ان تطرحهُ السفينة على البر

ومن العجيب ان سفن المتأخرين البخاريّة فاقت سفن المتقدمين الشراعيّة في كل شيء وبلغت من الاتقان في آلاتها مبلغًا لم يخطر على بال المتقدمين ولكنها صارت دون سفن المتقدمين في نبوتها فان السفينة الشراعيّة الطويلة السواري اقل نودانًا من السفن البخاريّة